المحاضــــــــــــرة الثانيـــــــة عشر :

**نظرية النظم (نماذج نصية من المشرق والمغرب) )والأندلس ).**

تعد نظرية النظم واحدة من أقوى النظريات التي أنتجها العقل النقدي العربي ،وسنبحث في هذه المحاضرة عن مفهوم النظم ثم سنعرج على ظروف نشأة هذه النظرية والملابسات التي أحاطت بتكوينها حتى استوت على عودها، كما سنتناول أبرز أعلامها مركزين على مؤسسها عبد القاهر الجرجاني ،وسنعرج على الأثر الذي خلفته على من أتى بعد عبد القاهر :

**أولا:  مفهوم النظم لغة واصطلاحا :**

**النظم لغة :**  ورد في لسـان العـرب : "نظم: النظم: التأليف نظـمه ينظـمه نظـما ونظـمه فانتـظـم وتنظـم، نظـمت اللـؤلـؤ أي جمعـته في السـلك. والتنظيـم مثلـه ومـنه نَظَـمْتُ الشِّعـر نظـمته، ونظـم الأمر على المثـل. وكـل شـيء قرنتـه بآخـر أو ضمـمـت بعـضَه إلى بعـض فـقـد نظـمتـه… والنظام كما نظمت فيه الشـيء مـن خيـط وغيـره وكـل شعـبه منـه وأصـل نظـام. ونظـام كـل أمـر مـلاكـه، والجمـع أنظـمة وأناظيـم ونظـم"([[1]](#footnote-1))

**النظم اصطلاحا:** عرفه عبد القاهر الجرجاني بقوله :"ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض."([[2]](#footnote-2))

**ثانيا :أسباب نشوء نظرية النظم :**

كان البحث في سر إعجاز القرآن الكريم قبل عبد القاهر في أمور شتى ،فبعض الدراسات نظر إلى الإعجاز من زاوية خارجة عن النص القرآني كالإخبار بالغيب أو الصرفة([[3]](#footnote-3)) \* **التي ترى أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته، وبعضها الآخر نظر إليه من زاوية ضيقة جدا من شأنها أن تفسر الإعجاز على آيات معدودات فقط،** أما عبد القاهر الجرجاني،فلم ير في التفسيرات السابقة ما يمكن أن يكون مقنعا ليفسر إعجازه، فقد كان يؤمن بأن الإعجاز ينبغي أن يكون بوجه يتحقق في **جميع سور القرآن** لا في بعض من سوره وآياته، ورأى أن الوجوه التي ذكرها العلماء قبله هي وجوه متفرقة في مواضع معينة من النص القرآني ،تكثر وتقل ولكنها لا تعم القرآن كله ،إذ من وجوه الإعجاز خارج البلاغة الإخبار الصادق بالغيب ،وهذا وقع في آيات معدودة لا في الكتاب كله ،ومن وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء الاستعارة "ولا يمكن أن تجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة "([[4]](#footnote-4))،وكبديل عن ذلك يرى الجرجاني أن الإعجاز إنما يكمن في النص القرآني نفسه بنصه وصياغته، فيما يسميه النظم على وجه التحديد، وأن بلاغة النص القرآني وفنيته بعد أن كانت من بين وجوه الإعجاز ،جعلها عبد القاهر الوجه الوحيد لذلك الإعجاز. **فإعجاز القرآن الكريم يكمن في طريقة نظمه تركيبه التي تفوق القدرة البشرية .**

**ثالثا :ظروف نشأة نظرية النظم :**

 لم يكن عبد القاهر أول من اهتم بالنظم ولكنه كان قديما قدم الأبحاث والدراسات اللغوية ،فهذه النظرية ليست وليدة اللحظة أو الصدفة ،بل هي نتيجة جهود فكرية متواصلة شارك فيها النقاد والبلاغيون واللغويون ،حتى تبلورت على يديه نظرية بلاغية نقدية قائمة بذاتها،فكان الطريق لدراسة النظم أمام عبد القاهر معبدا ،مستهديا في ذلك بآراء السابقين .وسنتطرق في ما يلي إلى ذلك المسار التاريخي الذي سارت فيه فكرة النظم حتى استوت على عودها :

**أ- ـ الجاحظ  -255هـ- :**

هو أول من رفض مقولة النظام ودعا إلى البحث في الإعجاز البلاغي للقرآن   يقول الجاحظ:" في كتابنا المنزّل الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به "([[5]](#footnote-5)).ولقد بحث الجاحظ في أسلوب القرآن وعجيب نظمه، مفرقا بين نظم الكلام ونظم القرآن،ولذلك وقف عند آياته مبينا وجوه الإعجاز وأسرار الروعة في التعبير بالقياس إلى كلام العرب([[6]](#footnote-6)) .

**ب ـ أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي -388ه -ـ:**

     تحدث الخطابي عن النظم في كتابه (بيان إعجاز القرآن) وأكمل ما جاء به الرماني لمسألة النظم بمعنى التأليف، وما تخضع له الألفاظ والمعاني من أمور لتمام هذا النظم والتأليف، فعرض الخطابي للعبارة كوحدة متكاملة في لفظها ومعناها ونظمها وكان تركيزه شديدا على موضوع النظم،ويرى الخطابي أن كل كلام يقوم على لفظ حامل، ومعنى قائم، ورباط لهما ناظم؛ فهو كلام مستقيم بليغ([[7]](#footnote-7))، "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه"([[8]](#footnote-8)) ،     ثم يقول: "فتفهّم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني".([[9]](#footnote-9))

وبذلك يكشف الخطابي عن نوع من الإحساس بانتظام عناصر النص الأدبي في وحدة خفية، مما يعطي النظم مفهوما جديدا يزداد وضوحا مع من جاء بعده.

**ج ــ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني تـ:403هـ:**

     اهتم الباقلاني بالنظم وبفنون البديع في القرآن الكريم ومعه يبدأ مصطلح النظم النقدي في الظهور إلا أنه لم يكن يستند إلى قواعد لغوية أو نحوية فهو يقول عن نظم القرآن: "وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه… على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوتَ فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ،ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا "([[10]](#footnote-10)) ،فهو يرى بأن نظم القرآن مختلف عن كل جميع وجوه النظم التي اعتاد عليها كلام العرب، وعلى هذا فهو لم يشذ عن إعطاء النظم ذلك المدلول الذي أطلقه عليه سابقوه؛ ألا وهو التأليف والضم والرصف غير مستند إلى أساس لغوي أو نحوي. ويقول معددا أوجه النظم في القرآن الكريم: "وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا تفاوت ولا تباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها"([[11]](#footnote-11))

**د ــ القاضي عبد الجبار -ت415ه - ـ:**

    أولى عبد الجبار قضية الإعجاز اهتماما وعناية لا نجد لها مثيلا عن سابقيه ،وزاد مصطلح النظم وضوحا وبدأت الأسس اللغوية لهذا المصطلح تتشكل بوضوح عند هذا الناقد ،حيث يرى أن اللفظة لا تكون لها قيمة خارج التركيب، فلا تكون فصيحة ذات دلالة إلا في ترابطها بغيرها بصورة متميزة ،ولم يقف عند هذا الحد ،بل تحدث عن التفاضل بين التراكيب وما بينها من فروق دلالية،فهو لا يريد الحركات الإعرابية وإنما ما هو أعمق وهو النظم :"اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام؛ وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع."([[12]](#footnote-12)) ، فالنظم بالنسبة لعبد الجبار يدور في مجالات ثلاثة: اختيار الكلمة في ذاتها، ثم اختيار الوظيفة التي تؤديها في مجتمع الكلمات التي تربط بها، ثم اختيار المكان المناسب لها. لتقوم فيه بأداء وظيفتها على أتم وجه وأحسنه ،وهذا ما يتفق فيه مع عبد القاهر الجرجاني ،لذلك كان سباقا إلى نظرية النظم التي وضحها عبد القاهر فيما بعد، ويعد هذا بداية تشكيل الأسس اللغوية للنظم([[13]](#footnote-13)).

يتضح من خلال ما سبق أن فكرة"النظم" وقبل أن تتشكل نظرية قائمة بذاتها عرفت تطورا وتقدما على يد نقاد كان لهم الباع الطويل في الدراسة النقدية عبر أزمنة متقاربة ،فكيف ينظر عبد القاهر الجرجاني إلى النظم مصطلحا ونظرية ؟

***رابعا : نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني –ت471ه-****:*

تحددت معالم نظرية النظم واتضحت قسماتها على يد هذا العالم الجليل دون غيره لأن النظم قبله لم يكن مقصودا عن عمد أو مدروسا بطريقة مباشرة ،وإنما هو شيء عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يؤخذون بجمال الشعر آو الإعجاز في القرآن الكريم داخل هذا النطاق فحسب ، أما النظم عند عبد القاهر فهو عمل مدروس ومحور يدور حوله كتابه "دلائل الإعجاز" كله ،وهو القصد من تلك الدراسة الواسعة ،وبعبارة أخرى لم يكن النظم قبل عبد القاهر يرقى إلى مستوى النظرية ولم يكن محيطا بألوان البلاغة كلها ،ولم يشمل جميع التعبيرات، وإنما كان نتفا متفرقة هنا وهناك ،لا يجمعها رابط ولا ينظمها سلك ولم تكن عمادا يرتكز عليه في الأسلوب والتعبير.

إضافة إلى ذلك فإن فضل عبد القاهر يكمن في تفصيل أوجه التأليف النحوي وكيف يؤثر في بيان الكلام وجماله،ومن سبقه لم يتعرض لهذه الخاصية. وبهذا نستطيع القول إن "عبد القاهر كان طرازا آخر مختلفا عن السابقين ،كان قمة شامخة في البلاغة والنقد ،لقد كان له من أصالة الفكر ورهافة الذوق وبراعة الحذق وقوة الذكاء وتوقد الذهن ما رفع من مقامه درجات ووضعه من مسيرة النقد العربي ،بل العالمي الموضع المتفرد الفذ الذي يوشك بلوغه أن يعجز اللاحقين"([[14]](#footnote-14))

**أ- مفهوم النظم عنده**:النظم الذي يدور عليه فكر الجرجاني عرفه بالقول:" ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"([[15]](#footnote-15)) ويقول في موضع آخر: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو،وتعمل على قوانينه وأصوله،وتعرف مناهجه التي نهجت،فلا تزيغ عنها،وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تبخل بشيء منها "([[16]](#footnote-16)) ،وهذا التعريف الشامل يعزز العلاقة بين علم النحو وفكرة النظم ،فكان النحو عنده ليس علم أواخر الكلمات والخطأ والصواب فيها ،وإنما علم تعليق الكلم بعضها ببعض،وهو الذي سماه معاني النحو أي العلم الذي يبحث في طرق التعبير ، "ليس (النظم) شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم"([[17]](#footnote-17)).

وقد طبق الجرجاني بالفعل هذه النظرية تطبيقا عمليا منهجيا على آيات من كتاب الله ،وعلى نصوص من أشعار العرب ضمن قضايا التقديم والتأخير،والفصل والوصل،والإظهار والإضمار،والاستفهام ،والنفي،والحذف ،والتعريف والتنكير،وغيرها من مباحث علم المعاني ، وراح يبحث في كيفيات التعبير التي تحقق للقول أكبر حظوظ الفعالية والتأثير، مركزا جهوده على سبر طرق أداء المعنى، مؤكدا بذلك فعالية الاختيار، وعلى هذا الأساس كان عمله يسير في اتجاه بحث أسباب اختيار تراكيب معينة وتفسيرها، ولماذا هذه البنية أو تلك؟ ولقد حاول في الجانب التطبيقي أن يلفت النظر إلى ما تشتمل عليه التراكيب من أسرار فنية، ومع تغيير بنائها تتغير الدلالات ومعها القيم الفنية التي تحتويها أو تدل عليها، فجمع بذلك بين النظرية والتطبيق ،وأسس لفرع هام من الدراسات البلاغية النقدية أفاد كل من خلفه في هذا المضمار.،وقد كان الجانب التطبيقي محل إشادة وتنويه من طرف الأستاذ محمد مندور فقد قال:"ليس لنظرية الجرجاني من القيمة ما لتطبيقاته"([[18]](#footnote-18))

**ب- النظم وقضية اللفظ والمعنى** :ينكر عبد القاهر أن يكون الإعجاز في ألفاظ القرآن وحدها أو في معاني الكلمات مفردة ،وكان الجرجاني معنيا بالرد على من يرى أن بلاغة الكلام في ألفاظه أو في معانيه ،أو في الاثنين معا وقد عرض في نظرية النظم تصورا جديدا يلغي ثنائية اللفظ والمعنى التي سادت الفكر النقدي العربي فالنظم عنده محصلة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني.

إن النظم الفني بالنسبة إلى عبد القاهر لا يعني الضم على أي كيفية كانت، بل يقصد منه الضم بطريقة معينة مخصوصة يراعى فيها القصد الدلالي ، وقد أسس عبد القاهر تصوره هذا بالاستناد إلى مقولة اللفظ والمعنى ،لأن الدلالة تختلف باختلاف البناء ،والمعنى الواحد لا يمكن أن يتكرر في تركيبين متغايرين ، والتسليم بهذا المبدأ يقودنا إلى أن الصورة التركيبية تخضع لاختيار عناصرها الإفرادية، واختيار نسقها الخاص الذي تترتب فيه تلك العناصر ويحتل كل منها موقعه الخاص ،بحيث يكون لهذا الاختيار من القيمة ما لا يتوفر في صور أو بدائل أخرى،وهنا يتدخل المبدع بإيثاره لعبارة على أخرى نظرا لما تعطيه الجملة المختارة من دلالات تتقاصر دونها الجمل الأخرى.

**ج- أهمية النظرية في النقد:** إن المزية والفضل في أي أسلوب نابع من طريقة التركيب أو التأليف وموجب المزية في النظم هو الإحساس بقيمة انتقائه من عدة بدائل ،والذي يتم على أساس من وعي المبدع بالفروق بين دلالات التراكيب المختلفة، وإدراك خصائصها والقدرة على استثمار طاقاتها التعبيرية،فاختيار التركيب إنما هو اختيار للخصائص التعبيرية التي ينفرد بها التركيب المختار ،وتضمنه من القيمة ما لاتتضمنه طرق تركيبية أخرى ،وبعبارة أخرى فإن *النظم* لا يكون فنيا إلا إذا قام على أساس من وعي المبدع بالفروق بين الدلالات، بحيث يختار من الصيغ ما هو أدق وأقدر على تأدية المعنى وأكثر ملاءمة للغرض الفني، وهذا يعني أن موجب المزية في *النظم* هو الإحساس بقيمة انتقائه من بين عدة بدائل ،وهنا يقع التفاوت بين *نظم* و*نظم* ،أو بين أسلوب وأسلوب ،والذي يعتبر عند عبد القاهر مظهرا للتفاوت بين المبدعين من حيث قدرتهم على الإحساس باللغة والبصر بدقائق نظامها، والقدرة على استثمار طاقاتها وإمكاناتها .

ويرى عبد القاهر أنه يمكن الوصول بهذه النظرية إلى الأسس التي يفضل بها كلام على كلام ،ثم يتعاظم هذا الفضل ويزداد حتى يصل إلى الغاية التي لا تدرك وهي الإعجاز. فهذه النظرية لا تفسر الإعجاز القرآني فحسب ،وإنما النص الكلامي الرفيع شعرا كان أم نثرا ،كما أنها تعالج مستويات الكلام الذي يبدأ بالعادي وينتهي بالمعجز ،وبينهما أساليب تتفاوت، وبذلك وضع عبد القاهر أساسا موضوعيا لنقد الأدب نقدا تحليليا معللا، وقفز به إلى المنهجية المنضبطة .

**د- مبادئ النظرية :**

1- تقوم النظرية على **توخي معاني النحو**، التي هي **معان إضافية** تقوم على قوانين النحو وأصوله، ولكن تتجاوزها إلى ما فيها من إضافات إلى أصل المعنى وفروق تتفاضل بها الأساليب .

2- يتم النظم على النحو الآتي :

أ- أن يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه .

ب- ضم الكلمات إلى بعضها لكن ليس ضما كيفما اتفق ،بل **لابد فيه من تتبع آثار المعاني** ،وبعبارة أخرى أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.وهنا لابد من **تخير الموقع** ،فتعلق الألفاظ لا يكفي حتى يختار لكل لفظ موقعه المناسب ،ولا نستطيع إزالته إلى مكان آخر دون أن يفسد النظم ويذهب بالقيمة البلاغية، يقول عبد القاهر في ذلك : "وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، ...وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟  وهل قالوا : " لفظة متمكنة ومقبولة " وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم . وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤادها؟ "([[19]](#footnote-19))

فالنظم بهذا المعنى شبكة كاملة من العلاقات شبيهة بقطعة النسيج التي تتقاطع خيوطها، وتتحد أفقيا وعموديا لتؤلف هندسة لفظية متناسقة، إذإن ـ:"النظم ليس إلا حركة واعية داخل الصياغة الأدبية ،حيث يسقط خط المعجم عموديا على خط النحو الأفقي ،ويكون من وراء ذلك ناتج دلالي ينتمي إلى الأدبية في عمومها."([[20]](#footnote-20))

3- لا ميزة للألفاظ من حيث هي أصوات مسموعة **فليس للفظ قيمة ذاتية بمعزل عن السياق** ،ولكنها تحسن **بمراعاتها للمعنى المراد وبمكانها مع أخواتها في التركيب**. فألفاظ القرآن الكريم مساوية من حيث انفرادها لكلام العرب ،وهي متاحة للجميع ،وإنما تأليفها وتركيبها هو الذي بلغ بها حد الإعجاز. ومن النماذج التي ساقها عبد القاهر : "وهل تشكُّ إِذا فكرتَ في قولهِ تعالى : " وقِيلَ يَا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغَيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتَ عَلَى الجُودِيَّ وقِيلَ بُعْداً لِلقَوم الظَّالِمين "هود/44 . فتجَلَّى لك منها الإِعجازُ وبَهَرك الذي تَرى وتَسمع ! أنك لم تَجدْ ما وجدتَ منَ المزيَّةِ الظاهرة والفضيلةِ القاهرة إلا لأمرٍ يرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكلمِ بعضِها ببعضٍ وأن لم يعرضْ لها الحسنُ والشرفُ إلاّ مِنْ حيثُ لاقتِ الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقرِبَها إلى آخرِها وأنَّ الفضلَ تَنَاتَجَ ما بينها وحصلَ من مجموعها إن شككتَ فتأملْ ! هل ترى لفظةً منها بحيثُ لو أُخذتْ من بين أخواتها وأُفردتْ لأَدَّتْ منَ الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها منَ الآية"([[21]](#footnote-21)) ، من هنا اتجهت تحليلات الجرجاني نحو التركيز على عمل العناصر في البنية من أجل إنتاج المعنى، كأن يقول إن هذه اللفظة صلحت هنا لكونها على صفة كذا ،أو لدلالتها على كذا،أو لأن الغرض يوجب كذا ،أو لأن ما قبلها يوجب كذا،فالألفاظ هنا تدرس بناء على علاقاتها ووظيفتها في بناء أكبر،وليس كوحدات مستقلة.

4- لا فضل للوزن في إعجاز القرآن و بلاغة الشعر ،وإلا لجازت التسوية بين قصيدتين لهما البحر نفسه والقافية نفسها .

5- التآزر التام بين اللفظ والمعنى :فلا يمكن التعبير عن الدلالة نفسها بأي شكل لغوي آخر،ولا يمكن لتعبيرين مختلفين أن يؤديا الدلالة نفسها .فاللفظ والمعنى يتحدان اتحادا تاما فإذا اختلفت طرق التعبير عن المعنى الواحد فلابد أن يتبع هذا الاختلاف تبدل وتغير للمعنى من تعبير لآخر ،وبذلك يربط المعاني بطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن الألفاظ والمعاني كل على حدة ،ولن يبرز المعنى إلا في صورة واحدة فقط.

6- فنية النص هي أساسا وليدة تركيبته اللغوية، أي وليدة ما ينشأ بين عناصره من أنسجة متنوعة ،لذا فإنه من الطبيعي أن يتكثف الإحســاس بأهمية المحافـــظة على شكل الخطــــاب، لأن المعنى الأدبي ماثل في صياغته وصورته اللفظية .

7- لا تأتي مزية النظم في الكلام من جانب العلم باللغة وأوضاعها، بل تأتي من حسن الاختيار ومعرفة مواضع فروق المعاني في النحو عند النظم والتأليف.

8- الاستعارة وسائر ضروب المجاز من مقتضيات علم النحو .

9- في النظم يؤخذ بعين الاعتبار الموقف أو المقام الذي يقال فيه الكلام،وبيان حال السامع (الملابسات والوقائع الخارجية التي لها علاقة بالكلام ).

**خامسا :نظرية النظم بعد الجرجاني:**

أ- **الزمخشري - 538هـ-:**  لم يؤلف الزمخشري كتابا خاصا في النظم، لكنه تعرض للمصطلح من خلال حديثه عن الإعجاز في القرآن الكريم في كتابه "**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**"،و إذا كان الجرجاني اعتمد على موروث العرب من الشعر العربي القديم والحديث النبوي الشريف ليثبت براعة نظم القرآن الكريم،  فإن الزمخشري اتخذ القرآن ميدانا له لإبراز عجيب نظمه وتأليفه الذي أعجز العرب حتى تحدى الناس جميعا، حيث إن الزمخشري كان يقف عند كل سورة من سور القرآن الكريم، بل عند كل آية من آيه موقف المتأمل الأديب الباحث عن أسرار النظم والتأليف في تلك الآيات.وقد استوعب الزمخشري كل ما كتبه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "**دلائل الإعجاز**" و"**أسرار البلاغة**" وحاول أن يطبق ذلك على آي القرآن الكريم، وكأن الزمخشري لم يترك شيئاً من آراء الجرجاني إلا ساق عليها الامثلة من القرآن الكريم، ولم يقف الزمخشري عند هذا الحد، بل قدم إضافات قيمة في المعاني، ومما أضافه الى دراسة علم المعاني :التقديم والتأخير وما يتصل به من تعريف المسند اليه وتنكيره، وتقييد الفعل بالشرط بعد إذا وان ولو ومواقعها في التعبير، والقصر والمعاني المجازية لأساليب الإنشاء ،مال الزمخشري في آرائه البلاغية إلى الأخذ باتجاه أصحاب المعاني عامة، وعرض في تفسيره للأسلوب من جهة نظر عبد القاهر الجرجاني مع التركيز على طرق التعبير وعلاقات النظم، والصلات النحوية للألفاظ ، فهو يأخذ برأي الجرجاني من حيث القرآن الكريم لكنه حيث عرض لنظم القرآن عرض إليه من ناحية الجمال الحادث عن أحكام معاني النحو ،وهذا هو جوهر نظرية النظم الجرجانية فـ "ما كان الزمخشري في كتابه الكشاف ليقف عند كل آية من آي القرآن الكريم مفسرا وشارحا، إنما كانت عينه متطلّعة إلى الكشف عن إعجاز النظم القرآني وأسراره في المفردات و التراكيب على السواء؛ فقد حاول أن يبرز مواطن الإعجاز في نظم القرآن عند تقديم كلمة على كلمة،أو اختيار كلمة بدل كلمة،أو حرف مكان حرف"([[22]](#footnote-22)).

***سادسا: نظرية النظم عند النقاد المغاربة والأندلسيين :***

**أ- ابن رشيق القيرواني (ت 456ه) :**

لم يذكر ابن رشيق مصطلح النظم على النحو الذي وجدناه عند النقاد المشارقة ، غير أنه يتفق مع عبد القاهر في عرض بعض الأفكار النقدية التي تعد عند عبد القاهر مبادئ أساسية في نظرية النظم ، وأولها ارتباط اللفظ بالمعنى ، حيث يرى ابن رشيق أن :" اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته" ([[23]](#footnote-23))، ولو اختلَّ التركيب في الشعر بعض الخلل، واستقام المعنى، هوى ركن من أركانه لا يقوى إلا به، كالعرج والشلل الذي يغض من تمام الخلقة وكمال الجسم، ويظل صاحبه حيًّا يتحرك هنا وهناك، وكذلك الأمر في ضعف المعنى، ينال من جمال اللفظ، ويكون النظم أشبه بالجسم الأجوف الفارغ الذي لا روح فيه، يقول ابن رشيق:" فإذا سلم المعنى واختلَّ بعض اللفظ، كان نقصًا للشعر، وهجنه علية، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور، وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح - وكذلك إن ضعف المعنى، واختلَّ بعضه، كان اللفظ من ذلك أوفر حظًّا، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح"([[24]](#footnote-24)).

ونذكر هنا رأي الدكتور أحمد مطلوب في تناوله الجانبي لابن رشيق في معرض دراسته لعبد القاهر الجرجاني ،حيث يعلق على كلام ابن رشيق عن علاقة اللفظ و المعنى بأنه ربط بين ركني الكلام : اللفظ والمعنى ، وجعلهما العمدة حسنه و جودته ولم يفصل بينهما . رغم أن البلاغيين والنقاد الآخرين ساروا باتجاه الفصل بينهما ([[25]](#footnote-25)).

وإضافة إلى ما سبق يفرد ابن رشيق أساسًا قويًّا، لم يسبق إليه، في فهمه للنظم، وتقديره للصورة حيث يعقب على اتجاه الشاعر ابن هاني، في عنايته بالجلبة والصخب في اللفظ، بدون كبير معنى، وينفي عنه الجودة وبرميه بالفساد([[26]](#footnote-26)) ، وإن حكم له بجودة هذا البيت حين يصف شجاعًا فيقول:  
 ***لا يأكل السرحان شلو عقيرهم  مما عليه من القنا المتكسر***

ليرى أن تنسيق الألفاظ فيه، واختيار الكلمات، ووضع كل كلمة في موضعها، جعل البيت جيدًا، وحقَّق ما يصبو إليه الشاعر، من المدح بالشجاعة، وذلك كله راجع إلى اختيار الألفاظ، وعلاقة بعضها ببعض، حتى انتهت الصورة الشعرية إلى الغاية في الجودة.  
 ولو يبدل الشاعر في النظم بتغيير بعض الألفاظ أو التقديم أو التأخير فيها، بأن كان الأعداء، هم كثير من قتل ممدوحه باليد؛ لكانت الصورة هجوًا له، وأنه ما ثبت في ساحة النضال لحظة، حتى قتل، ولكن الشاعر انتقى الكلمات، وأحكم النظم، ليحقق الغرض ويسمو بالمعنى، فأراد رماحًا لا رمحًا واحدًا - تتساقط عليه من كل جانب حتى كست جسده، وتعذر على الذئب أن ينهشه، فهو مصون في حياته ومماته، يقول ابن رشيق مع الإيجاز الذي يوحي بما سبق: "والعقير ههنا منهم، أي: لم يمت لشجاعته، حتى تحطم عليه من الرماح -ما لا يصل معه الذئب إليه كثيرة، ولو كان العقير هو الذي مقرّره هم، لكان البيت هجوًا لأنه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحدًا([[27]](#footnote-27)).

ب-**حازم القرطاجني (ت684هـ)** :

لقد تجاوز حازم في نظريته الشعرية مشكلة (النظم) التي أطال الجرجاني الوقوف عندها، فتحدث عن النظم بمعناه الواسع رابطا إياه بالأسلوب حيث يرى أن "النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقل من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وإنحاء التركيب ،فالأسلوب هيئة تحصل من التأليفات المعنوية والنظم هيئة تحصل من التأليفات اللفظية "([[28]](#footnote-28))، وهذا يعني أنه لم يقصر النظم على صورة السياق التأليفي بل تخطاه الى مراحل أخرى ،و إن أقر أن النظم يتناول سياق الالفاظ، فإنه أوجد الى جانبه الأسلوب ليتناول سياق المعاني، وفي توفر النظم مع الأسلوب لدى حازم يتم تخطيه لنظرية الجرجاني .

خاتمة :

  يتضح من خلال ما سبق أن "نظرية النظم" وقبل أن تتشكل نظرية قائمة بذاتها عرفت تطورا وتقدما على يد نقاد كان لهم الباع الطويل في الدراسة النقدية عبر أزمنة متقاربة، ليطور عبد القاهر إنجازات هؤلاءالنقاد بتقديم النظم في صورة نظرية نقدية لغوية متكاملة. وقد قدم النقاد المغاربة والأندلسيين إسهاماتهم في هذه النظرية وخاصة حازم القرطاجني الذي ربط النظم بالأسلوب. إن النظرية بما اشتملت عليه من مبادئ وأسس قضت تماما على ثنائية اللفظ والمعنى وأحلت محلها الصورة الشعرية.

1. -**ابن منظور** :لسان العرب،14/295. مادة : ن ظ م [↑](#footnote-ref-1)
2. - **عبد القاهر الجرجاني** :دلائل الإعجاز ، تح محمود محمد شاكر، ص55 [↑](#footnote-ref-2)
3. - "تعني الصرفة في الاصطلاح : أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن ، وكانت في مقدورهم ، لكن عاقهم عنها أمر خارجي ، فصار معجزة كسائر المعجزات ، ولو لم يصرفهم عن ذلك ، لجاءوا بمثله"،

   ينظر **السيوطي، جلال الدين** : الاتقان في علوم القرآن، وزارة الشؤون الاسلامية والدعوة والارشاد، السعودية،دط ،دت.،2/118. [↑](#footnote-ref-3)
4. - **عبد القاهر الجرجاني** : دلائل الإعجاز ،ص 392. [↑](#footnote-ref-4)
5. **الجاحظ** :الحيوان ،4/90. [↑](#footnote-ref-5)
6. ينظر المصدر نفسه ، 5/425. [↑](#footnote-ref-6)
7. ينظر **أبو سليمان الخطابي وآخرون**: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تح محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله أحمد، دار المعارف، مصر ،ط3، دت، ص26.، 27. [↑](#footnote-ref-7)
8. المصدر نفسه ،ص 26، 27. [↑](#footnote-ref-8)
9. المصدر نفسه ،ص 27. [↑](#footnote-ref-9)
10. **أبو بكر الباقلاني** :إعجاز القرآن ،تح السيد أحمد صقر ،دار المعارف ،مصر ،ص37. [↑](#footnote-ref-10)
11. المصدر نفسه ،ص36. [↑](#footnote-ref-11)
12. -**القاضي عبد الجبار** :المغني في أبواب التوحيد والعدل، تح أمين الخولي ،دار الكتب ، القاهرة ،دط ،1960 ،16/ 198، 199. [↑](#footnote-ref-12)
13. -ينظر **حاتم صالح الضامن** : نظرية النظم تاريخ وتطور ،بغداد ،1979،ص24. [↑](#footnote-ref-13)
14. - **عبد الملك بو منجل**: تأصيل البلاغة ، ص66. [↑](#footnote-ref-14)
15. - **عبد القاهر الجرجاني** :دلائل الإعجاز ، ص55. [↑](#footnote-ref-15)
16. - المصدر نفسه ،ص80. [↑](#footnote-ref-16)
17. - المصدر نفسه ،ص392. [↑](#footnote-ref-17)
18. -**محمد مندور** : في الميزان الجديد ، مؤسسات عين ابن عبد الله، تونس، ط1، 1988.ص155. [↑](#footnote-ref-18)
19. - المصدر نفسه ،ص392. [↑](#footnote-ref-19)
20. - **محمد عبد المطلب** :البلاغة العربية قراءة أخرى الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، د ط، د ت ،ص90 ،91. [↑](#footnote-ref-20)
21. - **عبد القاهر الجرجاني**: دلائل الإعجاز ،ص45. [↑](#footnote-ref-21)
22. - **فتحي عبد الفتاح الدجني**: الإعجاز النحوي في القرآن،مكتبة الفلاح ،الكويت،ط1، 1984، ص: 58 ــــ 59. [↑](#footnote-ref-22)
23. - **ابن رشيق القيرواني** : العمدة ،1/124. [↑](#footnote-ref-23)
24. - المصدر نفسه ، 1/124. [↑](#footnote-ref-24)
25. - **أحمد مطلوب** :عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، ص94. [↑](#footnote-ref-25)
26. - **ابن رشيق القيرواني** :العمدة ،1/ 125. [↑](#footnote-ref-26)
27. - المصدر نفسه ،1/125. [↑](#footnote-ref-27)
28. - **حازم القرطاجني** :منهاج البلغاء ، ص327. [↑](#footnote-ref-28)